

مفهوم التربية الشمولية لكون وانعكاسه على المدارس

أ.د. رجب قايم قجان*

مع انتهاء فترة الحرب الباردة حدثت تغيرات جذرية في مختلف المجالات على الصعيد العالمي. ويمكن القول إن تأثير العولمة قد ازداد زيادة كبيرة مع التطورات السريعة في تكنولوجيا المعلومات اعتبارا من تسعينيات القرن الماضي، وإذا كان الاقتصاد هو المجال الأكثر تأثرا بالعولمة فإن هذا يعني أنها لم تؤثر على المجالات الأخرى، وإنما حقيقة واقعة أن حقوق الإنسان والديمقراطية هما الخطاب الأكثر تأثيرا على الصعيد الدولي في هذا السياق، ومن الممكن رؤية تأثير هذا الخطاب الجديد على المجالات المختلفة. وأحد هذه المجالات هو مجال التعليم، لا يمكن أن يقال إن مفهوم التعليم الإلزامي والتعليم للجميع الذي تكون مع الدولة القومية الحديثة هو نشاط بعيد عن التقييم، إن تنشئة المواطن المناسب للدولة القومية كان أحد الأهداف الأساسية للتعليم، ومع العهد الجديد حدثت تغيرات جوهرية في فلسفة التعليم، والآن أصبحت تنشئة الأفراد الدين يتبنون القيم الديمقراطية وحقوق الإنسان إحدى الأهداف الأساسية للتعليم في المدارس. وبعبارة أخرى فقد برز في التعليم مفهوم المواطنة الديمقراطية. عقب فترة الحرب الباردة التي انتهت بانتهاء جدار برلين -مثل كل تغيير مهم- كانت الأجواء تتضمن المخاطر والفرص وعموما فإن الفكرة السائدة هي أن هذا النوع من التغيرات الجوهرية والعولمة

* أستاذ الحديث وعلومه - كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر -

يكون لصالح الأمم والدول القوية من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. إن أحد طرق تحويل التغير الجذري الحديث إلى فرصة، وليس إلى مخاطرة من جانب الدول ومنظمات المجتمع المدني والأفراد يأتي عن طريق قراءة روح التغير ومعناه قراءة جيدة وإعادة صياغته وبينما يتضمن الفرص الجدية وتنميتها بالنسبة للذين يدركون جيدا روح الزمن والتغير كان يتضمن أيضا المخاطر بالنسبة للمناهضين للتغير ومن هذا المنطلق يمكننا القول إن حركة كولن أو جماعته في تركيا تأتي في المقدمة في تحويل التغير إلى فرصة بالنسبة لمنظمات المجتمع المدني الأخرى أما المجال الأكثر فعالية في استفادة حركة كولن من الإمكانيات التي أتت بها العولمة فهو التعليم. كان واضحا تأثير الأهمية التي أعطتها جماعة كولن للتعليم المدرسي الجيد بصفة خاصة في إطار قراءة روح العصر قراءة جيدة وتحويل التغير وبالتالي يمكن أن يطلق على هذه الحركة حركة تعليمية.

ولا يمكن الاعتقاد بأن مؤسس حركة كولن ليست له وجهات نظر وتقييمات تتعلق بالتعليم على اعتبار أن أكثر ما يميزه هي الأهمية التي أعطاها للتعليم. فالمقترحات التي طرحها كولن والانتقادات التي وجهها لنظام التعليم القائم من الممكن أن تحلل من زوايا مختلفة، ففي إطار ما كتبه سوف يتم تحليل رؤيته التي تهدف على أن تتناول في داخلها تكامل القلب والعقل الإنساني الذي يعد أحد العناصر الرئيسية المكونة لأساس فهمه للتعليم وعلاوة على ذلك فسوف يتم توضيح القول الذي يشير إلى التشابه بين مفهوم التعليم لدى كولن ومفهوم: "التربية الشمولية" من وجهات النظر التربوية الموجودة في وقتنا الحاضر وبعد ذلك سيتم تقييم كيفية انعكاس مفهوم التربية الشمولية لكولن على المدارس الموجودة داخل تركيا وخارجها والتي

تعد وسيلة في نشأة "الجبل الذهبي" بتعبير كولن وهي العبارات الملموسة لمفهوم التعليم لدى الحركة.

مفهوم التعليم لدى كولن: الرؤية الشمولية

يرى فتح الله كولن أن مشكلة التعليم مشكلة جوهرية في العالم الحديث و ليس في تركيا فحسب ويرى أن أساس أزمة المجتمع الحديث هو تحطيم تكامل القلب والعقل في التعليم والفكر العلمي ويقول إن الفكر العلمي الحديث والنظام التعليمي قطع الرابطة بين جميع العلاقات الإنسانية والاجتماعية والفكرية وبين المقدسات بطريقة وضعية في عدة عصور ويرى أنها المصادر المهمة للأزمات الأخلاقية والمعنوية والفكرية التي تتعرض لها المجتمعات الحالية يرى كولن أن الحل لهذه المشكلة يكمن في تحقيق تكامل القلب والعقل في التعليم بنظرة شمولية إلى العلاقة بين الإنسان والكون والله. وأحد المحاور الأساسية لفلسفة كولن التربوية هو انتقاد مفهوم التعليم الجزئي الذي أفرزته الحداثة والذي كان السبب في الأزمة كما كان السبب في اغتراب الإنسان عن ذاته. ينتقد كولن في أحاديثه وكتاباتة من زوايا مختلفة الفهم المعقد للتعليم الذي يهمل الأبعاد المعنوية مسلطا الضوء على التطور العقلي الإنساني، هذه الانتقادات تقدم أفكارا فيما يتعلق بضرورة وجود تربية داخل المدارس وخارجها في نفس الوقت ووفقا لكولن فإن الرؤية الجزئية الحديثة في النظر إلى الإنسان و التربية تتلخص أساسا في مجالين الأول: عدم النظر إلى تطور الإنسان و إلى التعليم داخل تكامل القلب والعقل، الثاني: التقييم الموجود في إطار مفهوم المدرسة الدينية و المدرسة المدنية كانعكاس مؤسسي لمشكلة التعليم.

تكامل القلب والعقل

يقبل كولن بأن تتكون شخصية الإنسان من العناصر الجسمانية والذهنية والروحية يجب أن تتحقق الإمكانيات الإنسانية الكاملة بشكل منظم، و يؤمن بأن هذا التطور سوف يتحقق من خلال التعليم يضع فكره هذا في بؤرة التعليم والفهم الإنساني يرى التربية الشمولية كحجر الأساس لتنشئة "الجيل الذهبي" بتعبيره. يعبر عن فكرته هذه ب "تكامل القلب والعقل" ومن الممكن رؤية تأكيد كولن على الشمولية في التربية والأهمية التي أعطاها للبعد الروحي في التربية بصفة خاصة في تعريف التربية يعرف التربية كالتالي:

هاهي التربية تكسر التأثير المهيغ للأحاسيس المختلفة الموضوعة في ماهية الإنسان من أجل مقاصد وغايات كثيرة، من أجل كشف الطرق الذاهبة إلى الكمال الإنساني من هذه المشاعر التي تبدو ضارة موجهة إياها إلى اليد والحس و تطوير شعور الفضيلة وقوة الإرادة والقدرة الفكرية وحب الحرية .بمعنى العبودية للحق.

يعزو كولن مفهوم التربية الشمولية إلى المرجعيات الإسلامية في هذا الإطار يعلق تعليقا غريبا على صفة الفطنة التي يتصف بها سيدنا محمد بينما يوصل سيدنا محمد إلى الناس الرسائل التي تلقاها من الله يوضح أنه قام بهذا العمل بهدوء وكمتمخصص يقول عن النظرة الشمولية في تأدية النبي لمهمة التبليغ.

إنه يتناول الناس جميعهم ويقدم الرسائل التي جاء بها ضمن هذا التكامل لذلك لا يغفل على الإطلاق في مهمة التبليغ التي قام بها النبي أي من العقل والمنطق والقلب والروح والإحساس والمشعر ولا تترك خارج الأطياف المنيرة للوحي.

في هذا الإطار يعرف صفة الفطنة لدى النبي بأنها المنطق النبوي تجاوز العقل بالعقل ويوضح أن منطق هذا يجمع بين الروح والقلب والحس واللطائف. يدافع عن ضرورة كون كل شيء يتم تعلمه مكملًا للشخصية الإنسانية وضرورة إقامة علاقة بين الدنيا الداخلية للإنسان والأشياء والأحداث ينتقد فيما يلي العلم الذي لا يخدم هذا المقصد والذي يزيد معلومات الإنسان فحسب:

ليس هناك أن يكسبنا إياه علم لا يوجه إلى كشف الغموض الموجود بين شخصيتنا والأشياء لحساب العالم الخارجي والاندماج معه في الوقت نفسه فإن هذا الوضع يعني كون الوجدان في موقف سيء في مواجهة مثل هذه الألغاز. الأمر الذي سيحافظ على الوجدان ويرعاه هو وجوده مع مشاعره الخارجية. بناء عليه فإنه عندما يحرم من هذه الرعاية لن يستطيع تأدية ما ينتظر منه على الإطلاق.

... بدلا من تعلم المعلومات مع الكون هذا الأمر هو المرحلة الأولى للتفكير هي العلامة الأكثر قوة على روح التعلم وجديتها. أن يوضع الإنسان على طريق العلم حاصلًا على هذا الضمان سوف ينقده من سباق الحفظ و يحميه من الانشغال بالقشور ومن الهذيان الذي سقط به داخل المادية.

لا يرى كولن تكامل القلب والعقل باعتبارهما مشكلة في فلسفة التعليم فحسب بل يرى هذا الموضوع في الوقت نفسه من زاوية مستقبل البلاد وتنشئته الجيل الحالي باعتبارها قضية حياتنا أيضا.

إذا استطعنا أن نزود عقول الأجيال بعلوم الفترة التي يعيشون وأفندهم بالنسائم التي تهب من هنا وهناك وأن نجعلهم ينظرون إلى المستقبل بالمنظور التاريخي الذي سنجعله نبراسا في أرواحهم فاعلموا أن أقل جهد نبذله في هذا الغرض لن يذهب سدى.

يأتي اغتراب الناس عن قيمهم ومجتمعهم على رأس الانتقادات الموجهة لمفهوم التعليم الحديث الوضعي والمادي بالنسبة لتركيبا أو العالم الإسلامي. إن تأثيرات هذا الاغتراب هو تآكل شخصية الإنسان وقيمه وعند النظر من هذه الزاوية فإنه لا يمكن القول بأن المسلمين اليوم في وضع جيد من ناحية إحياء القيم الأخلاقية والإنسانية أما كولن فإنه يؤمن بأن الجيل الذي ينشأ داخل التكامل القلبي والعقلي ستكون له ماهية ولن يغترب عن قيمه يعبر كولن في كلماته التالية عن أن الجيل الذي ينشأ نشأة شمولية لن يكتفي بتبني القيم الإنسانية وسيدخل في معركة من أجل توصيلها إلى الآخرين :

في الواقع ما من أحد استطاع أن يصد هؤلاء الناس الصادقين الذين يعيشون متعلقين بفكرة تكامل القلب والعقل عن القيم التي يؤمنون بها إلى الآن كذلك فلا يستطيع أن يمنعهم أحد من التحرك في مسار رضا الله ومن السعي لنقل مشاعرهم هذه إلى جميع العالم.

أحد الأسباب المعرفية التي تعرقل تكامل القلب والعقل هو زعم الصراع العلمي الديني الذي يؤثر في ظهور الحداثة والذي يظهر كنتيجة للفلسفة الوضعية في الغرب لا يمكن الحديث عن مفهوم للتربية يتناول الإنسان ككل من كافة الزوايا في الوسط الذي تسيطر فيه الفلسفة التي ترى الصراع بين العلم والدين والمادة وما وراء الطبيعة والتي تهدف إلى أن يكون أحدهما مسيطرًا والآخر بدون تأثير بل حتى غير موجود. بالنسبة للتعليم يوفر تكامل القلب والعقل يجب حدوث تغير في العقلية التي تهدف إلى التوتر والصراع الحاد الموجودين بين العلم و الدين والمادة وما وراء الطبيعة. يقول كولن إن العلم و التعليم الذي يقطع علاقة الإنسان بالدين وما وراء الطبيعة لن يجد له السعادة.

"في الواقع، لا يمكن الوصول إلى الاتحاد السامي ولا يمكن جلب النور إلى وجه الأشياء بالعلم الذي لا يفيد الاتصال بـ"المطلق" مثل العلم الذي يؤدي إلى الإلحاد، ينكر الأسرار الموجودة في الكون بكثرة أو إلى شك يخنق القلوب بالتردد أم الأستاذ الذي يصل بطالبه إلى هذا الحال فإنه إما ملحد أم مشكك. لكنه ليس معلما على الإطلاق"

يوضح كولن أن موقف الغرب والمسلمين مختلف في علاقة العلم والدين لكنه يقول فيما يلي إن تأثير هذه العلاقة المتوترة الموجودة في الغرب ينعكس علينا:

تسببت الفلسفة العلمية والمنهجية العلمية الأوروبية في انفصال قلبي وعقلي وصراع علمي وديني في الغرب بأكمله من جراء بعض المواقف الخاصة، هذه السليبيات تشكل السبب الرئيسي للأزمات المتواصلة طوال العصور في جميع الأنظمة الغربية وعلاوة على ذلك فإن هذه الجبهة العلمية والفلسفية التي تكونت في البداية ضد تعاليم الكنيسة فحسب، تحولت مع الوقت إلى وضع يستهدف جميع المفاهيم الدينية وصارت راعية للإلحاد ومع الأسف أخذ المفكر الإسلامي البريء تماما نصيبه أيضا من هذا الموقف العدائي تجاه جميع الأديان.

ينظر كولن نظرة ايجابية إلى الفكر العلمي وإلى تعلم الأجيال الجديدة للعلوم الوضعية ويحث على ذلك، لكن كما هو الحال في كل موضوع فإنه يجب تجنب الغلو في هذا الشأن أيضا. لذا ينتقد أن يجعل العلم صنما وتنسب إليه جميع القيم ويعتقد أن مثل هذا الغلو يكون خطرا سواء على الإنسانية أو على العلم، ويقول بأنه يجب أن يكون هناك توازن في هذا الموضوع.

نعم، لا يمكن الحديث عن العلم في مكان تحرم فيه العقول من الفكر اللاهوائي. وتجعل الروح أسيرة التكنولوجيا وتعاني الحياة القلبية فيه من الإهمال الكامل وعن كون العلم مفيدا وعلى العكس من ذلك فإن العلم في مثل هذا المناخ سوف يساعد على أن يصبح للوحشية بعدا واستمرارية وتصبح المعارك شرسة ويصبح الخداع والاستغلال كارثة عملاقة وسوف يساند "القوة" في مواجهة "الحق".

إنه يشدد على الحاجة إلى العقلية العلمية وروح البحث وتعليم الأجيال الناشئة هذا الحماس ويهتم اهتماما خاصا بهذا الموضوع ويمكن رؤية هذا الفكر بوضوح في الاقتباس التالي:

في الواقع إذا كان هناك شيء أهم من العلم نفسه فهو العقلية العلمية وغرس المبادئ التي تستند إليها هذه العقلية في الأرواح هذا الأمر الذي سيبدأ من سن مبكرة جداً، ويحاول إيصاله إلى روح الشباب بجرعات محددة يكون مهما كلبن الأم على الأقل ومفيدا جدا وعلاوة على ذلك فإنه ينبغي بأية حال من الأحوال أن يتم تطعيم هذا الشغف العلمي والخلق العلمي لكل فرد من أفراد المجتمع من السابعة حتى السبعين حتى لا يحدث احتكاك بين مختلف قطاعات المجتمع بسبب التباين الفكري والفلسفي والثقافي وحتى لا يعيش العامة مصادمات وحلول في شرك المعارك والنزاعات.

إشكالية المدرسة المدنية والمدرسة الدينية

تستخدم إشكالية المدرسة المدنية والمدرسة الدينية اعتبارا من التحديث العثماني كرمز للعقليات المحددة في التعليم في نفس الوقت وبينما تهتم المدرسة الدينية التقليدية بما هو ديني ومعنوي فإنها تذكر بعقلية ومؤسسة تعليمية تهمل العلوم الوضعية وما هو مادي. وبالتأكيد فإن هذا لا يعكس الصورة الكاملة للمدرسة الدينية كمؤسسة

تربوية صاحبة الماضي التاريخي الطويل أما المدارس المدنية فهي مدارس حديثة مقامة بالمعنى الغربي تمثل عقلية مختلفة بينما تقوم المدارس المدنية بتسليط الضوء بإفراط على العلوم الوضعية والعقل فإنها تستبعد كل ما هو معنوي. ومن هنا ترمز إلى انفصال القلب والعقل والمادة والروح في نظام التعليم التركي كمنهج للتمييز أما فتح الله كولن فقد عاش الصراع بين هاتين العقليتين في حياته وفي البلد الذي عاش بها. في الواقع درس كولن العلوم الدينية متلقيا تعليمه في المدرسة الدينية التقليدية في ارضوم. من المؤكد أنه تلقى هذا العلم من المعلمين الباقين من أواخر العهد العثماني في فترة لم يكن يوجد بها مدرسة دينية في تركيا رسميا أما تعلمه في المدارس الدينية بالمعنى الرسمي فكان يقتصر على المدرسة الابتدائية. وقد طور نفسه بنفسه في العلوم التي تدخل في مجال المدرسة المدنية، لكن كولن الذي يرى التعليم باعتباره أهم برنامج للحركة التي أسسها يعتقد أن خلاف عقليات المدرسة الدينية و المدنية في تركيا خاطئ.

إن كولن الذي تلقى تعليمه في المدرسة الدينية ينتقد بشدة المدرسة الدينية وعقليتها بنظرة مخلصنة انتقاداته موجهة إلى برنامج المدرسة الدينية ومناهجها التعليمية من ناحية أخرى وإلى عجز هذه المؤسسة عن استيعاب العقلية العلمية الموجودة في عصرنا من ناحية أخرى. علاوة على ذلك، فإنه يرى المدرسة الدينية عاجزة عن إدراك أهمية العلوم الوضعية فحسب، بل ينتقدها في الوقت نفسه من ناحية تجاهلها للتصوف الذي يمكن أن يطلق عليه روح الإسلام. عند تقييم مجموع كتابات كولن ومحدثاته المتعلقة بالموضوع فإنه في النهاية يرحح المدرسة المدنية بشرط عدم إهمال ما هو معنوي في هذا الإطار يهتم اهتماما خاصا بالمدرسة المدنية على عكس العديد من الجماعات الدينية الأخرى في تركيا، وتعبير آخر يقترح نموذجاً

نلاحظ في مفهوم كولن عن التعليم ضرورة الاستفادة من التغيير دون رفض كل ما هو تقليدي رفضاً تاماً. يشير فيما يلي بصورة موجزة إلى ضرورة الاستفادة مما هو تقليدي في التعليم الحديث "هناك حاجة عظيمة في التعليم إلى الروح العليمة للمدرسة الدينية وإلى حياة التزكية الروحانية و إلى انضباط الثكنة العسكرية وإلى التوحيد بين هذه المحاور الثلاثة".

يعبر كولن فيما يلي عن أن المهمة التي تقع على عاتق الدولة في التعليم يجب أن تحقق وحدة الفكر و الإحساس في التعليم.

نعم، يجب أن تعمل أي حكومة على تنظيم ليس عمل أمتها وتحركاتها وسلوكياتها فحسب بل فكرها وفهمها أيضاً، أما أهم أساس في مثل هذا التنظيم فهو وحدة الفكر ووحدة الإحساس ووحدة التعليم والتربية، إذا كان الأفراد الذين يصنعون أمة ينهلون من الثقافات المختلفة والأفكار المختلفة ويتعارضون مع بعضهم البعض ويدخلون في شجار مع بعضهم البعض حول المفاهيم المختلفة فمن المحتوم أن تلتهم هذه الأمة نفسها وإنني كأحد أفراد أمتنا قد حاولت الحديث في كل فرصة عن الأمور التي أعرفها حق المعرفة حتى لا تعاني أمتنا مثل هذا المصير.

يمكن القول إن روح قانون "توحيد التدريس" في تركيا قضت على إشكالية التربية والتعليم التي فكر فيها كولن، واتجهت إلى الوحدة داخل انسجام ما هو مادي وما هو معنوي تحت مظلة المدرسة المدنية ومن هنا يمكن الزعم بأن جوهر "توحيد التدريس" قد انسجم مع فكرة التوحيد في التعليم لكولن. وفي الحقيقة فقد ظهر توحيد التدريس في تركيا لسنوات طويلة في شكل استبعاد لما هو معنوي بتأثير الفلسفة الوضعية أكثر من الاتحاد المتناغم بين الجديد والقديم وبين العلوم الوضعية وكل ما هو معنوي تحت مظلة المدرسة المدنية.

إن كولن الذي يرحح المدرسة المدنية في إشكالية المدرسة المدنية والمدرسة الدينية كعقلية ومؤسسة تعليمية ينسب إلى المدرسة المدنية معنى مختلفا عما هو موجود تجذب الانتباه آراؤه التالية المتعلقة بالمعنى الذي نسبه إلى المدرسة المدنية.

المدرسة المدنية هي مؤسسة فريدة ستضمن النظام تجاه الحياة المدنية وقضايا الدولة والأمة والأحداث العالمية كما هو الحال في شتى الموضوعات العلمية وستدرهم على التفكير المنهجي والعلم المنهجي وسوف تعني و تطور الأشياء الجيدة و الجميلة التي غرسها البيت في أرواحهم، التفكير المنهجي والعمل المنهجي هي قواعد مهمة من ناحية العلم والحكمة، إن الحكمة التي تقول بجعل العقل مفتوحا للإلهام واستخدامه استخداما سليما هي أهم ركيزة والمصدر المبارك للدين والأخلاق والفن. وفي هذا الإطار يكون هدف المدرسة المدنية التي تعطى شكلا مثاليا أن تكسب المداومين عليها مهارات عالية وان تجعلهم يتفوقون على جميع الأمم في التصور الروحي والمادي، وأن تعرض لهم السبل الكفيلة ببناء حضارة تفوق الحضارات كما هو الحال فيما مضى.

إن كولن ليس وحده في انتقاد التعليم الحديث الآلي الذي يهمل تكامل القلب والعقل في التعليم، تمت انتقادات ما بعد الحداثة في العالم الغربي لا سيما في السنوات الأخيرة يمكن القول بأن فلسفة التعليم الأقرب لانتقادات كولن هي التربية الشمولية دعونا الآن نعرّف بإيجاز مفهوم التربية الشمولية وتطوره.

التربية الشمولية

حركة التربية الشمولية هي نتاج الحركة الثقافية والفكرية التي كانت موجودة في الستينات والسبعينات من القرن الماضي في الغرب

لا سيما في الولايات المتحدة. ومن المؤكد أنه قبل هذا التاريخ كان العديد من التربويين والمفكرين يتحدثون عن الأفكار التي تؤكد على التربية الشمولية والتي تضع الأساس لها، بدأ مفهوم فلسفة التعليم يستخدم من قبل مجموعة من علماء النفس الإنسانية والتربويين في المؤتمر المنعقد في كاليفورنيا في عام 1997. وقام رون ميلر أحد الأسماء البارزة في التربية الشمولية بتعريف التربية الشمولية كالتالي: "هي فلسفة تربوية تزعم أن هوية كل إنسان وعالمه المعنوي وهدفه من الحياة يتكون من سلسلة العلاقات التي يقيمها بين المجتمع والكون والقيم المعنوية" وإذا كانت هناك تعريفات أخرى فإن المعنويات تعرف بأنها التناغم الموجود بين العالم الخارجي والداخلي للإنسان".

يقال إن نظام المدرسة الحديثة يعطي فرصة لتنمية قسم من المهارات الإنسانية ويكون له تأثير محمود على تطور إمكانات الأطفال ويعتقد التربويون الشموليون بضرورة تغذية الأطفال بالمعنويات واحترام البيئة الطبيعية وشعور العدالة بدلا من تعليم يهدف إلى مشاركتهم كمواطنين صالحين، وكمنتجين للاقتصاد فحسب، ويدافعون عن فهم ينمي جميع جوانب الإبداع والتخيل والرحمة ومعرفة الذات وما إلى ذلك لدى الأطفال في التعليم. وهكذا تهدف التربية الشمولية إلى تربية جميع الناس والمساهمة في أن يعيش الأفراد بصورة أكثر وعيا داخل مجتمعاتهم وبيئاتهم الطبيعية. تدافع هذه الآراء غير الشائعة المتعلقة بالتعليم في المجتمع الصناعي عن ألا يكون الإنسان كائنا عقلانيا فحسب بل ينبغي أن تكون الأبعاد المعنوية والعاطفية مهمة وأن تنعكس على التعليم. التربية الشمولية التي تعود جذورها إلى ما قبل ستينات القرن الماضي بكثير تستمد الإلهام من دراسات بعض المفكرين التي أجريت في المجال الفلسفي والتربوي.

تدافع المدرسة الشمولية بالمعنى الفلسفي عن ألا يكون الكون مجزأ وأن يكون وحدة يرتبط كل شيء فيها مع بعضه البعض وتدافع عن أن هذه الوحدة تمثل مصدرا خلاقا يضم كل شيء من خلال عدة طبقات أو قرائن، بعض المفكرين الشموليين يذكرون أن الحقيقة تتكون من كل ما بداخل الكل. ويشيرون إلى أنه هناك شيء لا يكون جزء تقطع صلته بدون سياق. يعرف ألدوس هكسلي ما وراء مدلول الحقيقة في شكل مطلق أو مصدر يوجد خلف المظهر السطحي الملموس، يقال إن البعد المعنوي في المفهوم الشمولي ليس قاصرا على ما وراء الطبيعة وإنما يكون الجوهر والمعنى النهائي لجميع المخلوقات. يضع منظرو التربية الشمولية مثل ميلر وكسلر المعنويان للتربية الشمولية يوضح هؤلاء المفكرون أن التربية لا تكون من أجل الجانب الاجتماعي والنفسي للشخص فحسب، وإنما تكون من أجل الروح والجوهر والإنسان أما المعنويات وإن كانت تتضمن البعد الديني، فإنها لا تكون مقتصرة عليه. وإنما لا نهائية و توسيعية ومطورة وتؤكد النظرة الشمولية على تكامل الظاهر بدلا من انقسامها ومخالفة بعضها البعض ورؤية الدنيا بصورة توازن فعال للقوى.

أما مصدر الإلهام المهم الآخر لفلسفة التربية الشمولية هو التطور الموجود في الفكر العلمي في نظرية النسبية و ميكانيكا الكم. يرفض العلماء في هذا المفهوم عملية العلاقة السببية الميكانيكية النيوتنية ويرى هؤلاء العلماء الكون كبناء يتكون من قوالب وعلاقات معقدة ولا يستطيعون اختزاله إلى علاقة سببية ميكانيكية على سبيل المثال. فإن "نظرية الذكاء المتعدد" التي تؤكد على اختلاف وتعقد طرق تعرف العقل الإنساني على العالم اليوم تتحدى التعريف التقليدي للذكاء. وتتصور التربية الشمولية في نفس الوقت بشدة الحساسية تجاه البيئة.

مفهوم التربية الشمولية الذي يتنبأ بالإشكالية بين المختزل والوضعي والإنسان والعالم يعارض النظرة الدنيوية لكارترزيان. تدافع التربية الشمولية عن ضرورة تربية الإنسان بصورة أكثر شمولية تجاه المفاهيم الآلية الجزئية والتمييز الحاد للإنسان في الحضارة الحالية كالجسم والعقل الذكاء والعاطفة، العقلانية والبدئية، العلم والفن، الفرد والمجتمع، البشرية والكون.

يمكننا القول بأن التربية الشمولية تمثل نقداً وبديلاً للرؤية الدنيوية الآلية ومفهوم التعليم الذي يتشكل وفقاً لها. وبالتالي فإن النظرة الشمولية هي نظرة ما بعد الحداثة للتربية. يلاحظ أنه قد ازداد الاهتمام بمفهوم التعليم الشمولي الذي ظهر نتيجة ضعف مفهوم التربية الحديث الموجود في تناول الإنسان ككل، لكن التعليم في العالم لا سيما تعليم المدارس ليس فعالاً ومميزاً. عن عدم تناول فلسفة التربية الشمولية للإنسان بصورة مختزلة جزئية يعطي الفرصة لوجهات النظر المتعلقة بالدين للتعبير عن نفسها كجانب معنوي في التربية وكعنصر مهم من عناصرها في إطار نظام التربية العلمانية. ومن هنا فإنه يلاحظ أن المنظمات التعليمية القائمة على الإيمان تقيم اهتماماً شديداً بمفهوم التربية الشمولية.

بعد التفسير الموجز لفلسفة التربية الشمولية التي تعتمد على القديم من ناحية فلسفتها ومصادرها والتي دخلت عملية صياغة المفهوم اعتباراً من ثمانينات القرن الماضي، دعونا نحاول أن نقارنها بمفهوم كولن التربوي المشار إليه فيما سبق، قبل أن نبدأ في هذه المقارنة فلنذكر ما لم يحلّ بشكل مفصل بكافة أبعاد نظرة كولن للإنسان والتعليم. وقد تمت محاولة تقييم رؤية الإنسان ككل من الزوايا المختلفة وانعكاس هذا على التربية في إطار ما كتبه كولن. علاوة على ذلك، ففي هذه المقارنة يجب أن نوضح أن مبررات

التشابه في نظرة كولن للتربية مع فلسفة التربية الشمولية لم تكن بزعم أنها تتطابق مع بعضها البعض. الهدف في هذه المقارنة هو دراسة تمهيدية تحاول إظهار أي من فلسفات التعليم الحالية ومناهجها تتصل بآراء كولن المتعلقة بالتعليم. ومن أجل فهم الموضوع جيدا يجب عمل دراسات مقارنة تفصيلية موجهة إلى فلسفة التربية الشمولية و تطبيقها مع الأبعاد التعليمية المختلفة لكولن. بعد هذه التوضيحات المنهجية دعونا نبحت آراء كولن مع التربية الشمولية.

أولاً: تنتقد فلسفة التربية الشمولية وفتح الله كولن فلسفة التربية الحديثة الوضعية الآلية وتطبيقها. ينتقد بشدة التعليم الحديث إذا كان سيعتقد أن المفكرين الذين يقومون بصياغة مفهوم التربية الشمولية من العالم الغربي. التربية الشمولية هي نقد يحمل طابع ما بعد الحداثة ظهر نتيجة النظرية الموجودة في العالم الغربي التي تطبق وتطور مفهوم التربية الوضعية الحديثة والقصور الموجود في تطبيقها. نقد كولن للتربية الحديثة الآلية هو نقد ظاهري. لأنها ليست من الحضارة الغربية التي أنتجت فلسفة التربية الحديثة نفسها، بل نشأت في الثقافة التركية الإسلامية. لكن لا يعني انه لم يعرف التربية الوضعية الحديثة، ولم يتأثر بها. ولد في تركيا التي تعد واحدة من أكثر الدول التي عاشت التأثير الهدام لجعل التربية الوضعية الآلية المقتبسة من ثقافة أخرى الإنسان غريباً عن نفسه في التنشئة وكان رائداً في تكوين مؤسسات تعليمية. تجتمع الانتقادات الموجهة إلى التربية الوضعية الحديثة الوافدة من منابع ثقافية مختلفة في نقاط مشتركة. إهمال البعد المعنوي والنظرة أحادية الجانب في موضوع فهم الإنسان نفسه وبيئته وعلاقته مع الكون.

ثانياً: ينتقد كولن ورواد التربية الشمولية تناول التربية الحديثة للإنسان بصورة جزئية ومزدوجة للمادي والمعنوي والعقلي والحسي وما إلى ذلك، من ناحية الممارسات التعليمية الموجودة في المدارس.

لأن التعليم الحديث هو تعليم جزئي في معنى من المعاني. ولهذا فبدلاً من رؤية جميع المهارات الإنسانية والفطرة الموجودة في الطبيعة كوحدة وتنميتها، تقوم بتسليط الضوء على الجوانب المادية والعقلية وهمل الأبعاد الأخرى، وتتغاضى عن تكامل القلب والعقل بالمصطلح الذي استخدمه كولن.

ثالثاً: إن النظرة الدنيوية التي تستبعد الغيبيات من الحياة من الناحية المعرفية والتي تدعي العبور إلى المرحلة الوضعية في نهاية التطور الإنساني قد استبعدت الدين وما هو غيبي من نظام التعليم الحديث ومن النظام المدرسي. وقد مهد هذا في نفس الوقت الأرضية لتكوين الاختلاف مع ما هو غيبي وديني في التعليم. وفي هذا الإطار يمكن تقييم كولن من خلال نقده الموجه إلى التمييز بين المدرسة المدنية والمدرسة الدينية الذي سيقم عدم وجود صراع بين العلم والدين من الناحية المعرفية. وانعكاس هذا على المؤسسات وعلى العقلية. وبنفس الطريقة، فإن موضوع الحديث عن التشابه بينه وبين مفهوم التربية الشمولية الموجهة إلى ضرورة عدم إهمال ما هو غيبي ومعنوي في التعليم من الناحية المعرفية.

مدارس حركة كولن والتربية الشمولية

فتح الله كولن هو المهندس المعماري لحركة تبدي فعالية في تركيا وفي العالم وذات طابع ديني وترى التعليم العنصر الرئيسي لخدماتها. يوجد فيما سبق الأسباب التي تقوم بعمل تقييم بناء على وجهات النظر التربوية لكولن المدافع عن النظرة الشمولية للإنسان. عند النظر للتعليم. هناك العديد من الجماعات الدينية والمفكرين الذين وجهوا النقد لمفهوم التعليم الحديث والآلي في تركيا. لكن يلاحظ أن هذه الانتقادات غالباً ما تظل في المرحلة النظرية والفكرية.

ومن المؤكد أن الانتقادات النظرية الموجهة إلى التعليم الحديث مهمة أيضا. أما كولن فلا يكتفي بالنقد النظري للتعليم الحديث الذي يقترب جزئيا من الشخصية الإنسانية، ويحث على افتتاح المدارس من أجل تنشئة الإنسان الذي في خياله. بدأ كولن في ثمانينات القرن الماضي فتح المدارس الخاصة ومعاهد الدروس الخاصة في تركيا. واليوم تدير حركة كولن مدارس خاصة في مرحلة التعليم الابتدائي والإعدادي تتخطى أعدادها المئات. بعد تسعينات القرن الماضي في فترة ما بعد الحرب الباردة صار فتح المدارس نشاطا في جميع أنحاء العالم متجاوزا حدود تركيا. يوجد اليوم المدارس الخاصة التي يطلق عليها "المدارس التركية" المفتوحة من قبل حركة كولن فيما يزيد عن 100 دولة في العالم وبلا شك أن الفهم التربوي والإنساني لكولن المهندس المعماري للحركة سيكون له تأثير داخل البرنامج الصريح والضمني في المفاهيم التربوية لهذه المدارس.

ومن المعروف أن المدارس الخاصة المفتوحة من قبل حركة كولن في تركيا وفي الدول الأخرى الموجودة في العالم لا تعطي أفضل تعليم وتفتح المدارس بالمعنى الحديث وتحصل على الربح بالمعنى الاقتصادي فحسب. بالإضافة إلى ذلك يلاحظ النشاط التربوي في هذه المدارس المفتوحة بتشجيع كولن كنشاط معنوي وترى المدارس كوسيلة في تنشئة جيل يطلق عليه بتعبير كولن "الإنسان النموذجي"، "ورثة الأرض"، "الجيل الذهبي". وفقا لكولن هذا الجيل هو مجموعة من الناس المتفانين والمخلصين الذين أضيئت عقولهم بالعلوم الوضعية، وقلوبهم بالعلوم الدينية والمزودون بالإيمان الكامل والحب والأخلاق وروح البحث. والذين تخلوا عن رغبة الحياة من أجل الإعاشة. في هذا السياق كيف سيتم تحقيق هذا الهدف في السياق التربوي الحديث وبواسطة المدارس المنشأة في إطاره.

للهولة الأولى يلاحظ عدم وجود محتوى ودروس مختلفة عن المدارس الأخرى في برنامج التعليم الرسمي الذي يوفر تكامل القلب والعقل لدى الإنسان في المدارس المتصلة بحركة كولن. هذه المدارس في موضع المدرسة الخاصة التي تتبع برنامج التعليم الموجود في المدارس الموجودة في تركيا وفي العالم. وبعبارة أخرى، فإن هذه المدارس لا تطبق دروسا وبرامج منفصلة تحمل مواصفات دينية وأخلاقية تدرس فيه ما هو معنوي. وفي هذا الصدد ليس من الممكن أن نرى في مدارس كولن الامتيازات الممنوحة في التعليم الديني والأخلاقي للمدارس الكنسية التي يطلق عليها منظمة الفكر الديني المسيحي التي تنعكس على التعليم. ومن هذا المنطلق فإنها تكسوها صبغة علمانية كاملة. علاوة على ذلك فإن هذه المدارس المنشئة في إطار المدرسة الحديثة قد احتلت الصدارة بالنجاح الذي أظهرته أكاديميا. يلفت طلاب المدارس الأنزار في الأوساط العامة بنجاحهم الذي يظهروه في الامتحانات الموجهة إلى مرحلة التعليم العالي (دخول الجامعة وما إلى ذلك) وبدرجاتهم في الأولياد العلمي. إن البداية المحتملة لتوجيه الناس أطفالهم إلى هذه المدارس هو نجاح هذه المدارس من الناحية الأكاديمية. أما السبب الآخر فيمكن أن يكون مفهوم التربية الشمولية التي تتمركز حول القيم الإنسانية الأساسية للهولة الأولى يمكن أن تثار الانتقادات الموجهة إلى الجانب المعرفي لدى الطلاب المتجهين إلى التعليم الحديث بالنسبة للمدارس المرتبطة بحركة كولن أيضا. إذن كيف يتحقق تعليم يهدف إلى توفير تكامل القلب والعقل تحت مظلة حديثة بصفات علمانية؟ أما الإجابة المحتملة لهذا السؤال فهي تربية القيم بمعنى من المعاني المتحققة من خلال البرنامج الضمني الموجود داخل ثقافة المدرسة. الآن دعونا نحاول الوقوف باختصار على القيم وتربية القيم.

على الرغم من وجود التعريفات والآراء المختلفة في موضوع القيمة في أدب العلوم الاجتماعية، فإننا يمكن أن نعرّف القيمة بأنها حكم دائم ومعيّار يستوعب به الفرد في النهاية التفاعل مع بيئته. ويوجه به أفعاله. القيم بالمعنى الاجتماعي هي مبادئ السلوك التي عممت واتفق المجتمع على كونها الأفضل والأصدق والأكثر فائدة. أما بالمعنى الفردي فتعبر عن الحقائق الأساسية التي ترشد إلى السلوكيات. ومن المعروف أن المؤسسات (الاجتماعية) التي تشكل البنية الاجتماعية تتضمن القيم الخاصة بها. تتولى هذه المؤسسات (الأسرة، التعليم، الدين،.. الخ) الأدوار المهمة في تبني القيم وفي معاشتها وفي نشرها وفي نقلها إلى الجيل القادم. يمكن أن تتغير القيم التي يفضلها الفرد والمجتمع وفقا للزمان والمكان. المؤسسات الدينية والمنظمات الشبابية والمدارس صاحبة وظيفة مهمة في نقل القيم التي تتبناها المجتمعات أو الجماعات للأجيال الجديدة. في هذا السياق. فإن إحدى الوظائف المهمة للمعلمين هو نقل القيمة الإنسانية الأساسية والمعايير الأخلاقية للأجيال القادمة. إن تربية القيم الموجهة للطلاب في المدارس لا تعني فتح درس منفصل. إن التربية التي تتم عن طريق تكامل مفهوم القيمة بوعي عند تعليم كل موضوع، تعطي نتائج ناجحة للغاية، إحدى المجالات التي تحقق تربية القيم تحت مظلة المدرسة في برنامج ضمني. لأن موضوعات مثل مناخ المدرسة ومفهوم انضباط المعلمين وسلوكهم القيادي وتطلعاتهم تساهم في تربية القيم لدى الطلاب وتنميتها. أما تربية القيم بصفة عامة فيمكن أن تعرّف كالتالي " تربية القيم هي محاولة تنمية المعلومات والمهارات والقدرات لدى الجيل الجديد الناشئ مما يوفر إمكانية قيامهم بالاختيارات التي سيتحملون مسئوليتها بواسطة البرامج والممارسات المختلفة بهدف المساعدة في مجال إكسابهم القيم الإنسانية الأساسية وتكوين حساسية اتجاهها وتحويلها إلى سلوك".

إذا كان أحد المطالب في تركيا والعالم للمدارس المتصلة بحركة كولن هو الأداء الناجح أكاديميا فإن المطلب الآخر هو تربية القيم الموجهة للطلاب بموجب التربية الشمولية. كيف تتم تربية القيم التي ستحقق تكامل القلب والعقل على الرغم من عدم تطبيقها لبرنامج مختلف عن المدارس التي في الدول الموجودة بها ؟ اعتقد أن جواب هذا يكمن في ثقافة المدرسة. يمكن أن يقال إن القيادة والسلوك النموذجي للمدرسين في الأنشطة داخل الدرس وخارجه يكون لها دور مهم. وبتعبير آخر فإن المعلمين هم عامل النجاح في أن تحقق المدارس تربية القيم التي تحقق البعد المعنوي أو الروحي للتربية الشمولية، في الواقع، فإن المعلم في التربية والتعليم هو عنصر النجاح الحاسم في نجاحها من كافة الزوايا. مدارس كولن في وضع المدارس الخاصة، لذلك يحق لها تحديد المعلمين. فعند اختيار المعلم يشكل توظيف هذا النوع من المعلمين الذين يهتمون بالتنشئة الشاملة للإنسان مع نجاحهم في تخصصهم أهم فرق. في هذا الشأن يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: أين نشأ المعلم ليصل إلى الشمولية في التعليم؟ يتم استخدام معلمين من تركيا بنسبة كبيرة في جميع المدارس التي في تركيا أو في المدارس الموجودة خارجها. معظم هؤلاء المعلمين تخرج في مؤسسات التعليم العالي التي تدرّب المعلمين في تركيا. وأنها الحقيقة عدم وضوح المفهوم الذي يهدف إلى النظر للإنسان ككل في برامج مؤسسات التعليم العالي التي تدرّب المعلمين. إذن كيف يتدرب المعلم الذي سيكون المرشد في التعليم صاحب تكامل القلب والعقل الذي سينشئ "الجيل الذهبي" بتعبير كولن؟ تكمن إجابة هذا السؤال في أن يكون الطابع الأساسي لحركة كولن أو جماعته ذا منحنى تعليمي. في البداية يتم توجيه الطلاب الموهوبين المتصلين بالجماعة إلى أقسام المرشحين للتدريس في القيم التربوية

للحركة ومن أجل تعلمهم. في الواقع، فإن النجاح الذي حققته المدارس المرتبطة بحركة كولن في تربية القيم سوف يفهم فهما جيدا عند التفكير في العلاقة الموجودة بين الجماعة والمدارس. يقول تونجر إن كولن أنشأ من جديد مهنة راتبة وإخراجها إلى الساحة التاريخية مرة ثانية. مع الأهمية التي أولاهها لمهنة المعلم يقترح نموذجا للمعلم واسع الأفق من كافة الزوايا. يمكن أن نعر فيما يلي ببعض الاقتباسات عن آرائه في موضوع الأهمية التي أعطاها كولن للمعلم ووظيفته:

المعلم من المولد إلى الوفاة، على مدى حياة كاملة، هو أستاذ مقدس يشكل الحياة يرشد الأمة في الحزن، ويعلو بأخلاقها وشخصيتها، ويلقنها بالشعور الأدبي، ولا يمكن إظهار مخلوق ثان على سطح الأرض مماثل لهذا الكائن السامي.

تأثير المعلم على الفرد يفوق كثيرا تأثير الأم والأب والمجتمع. في الواقع، فإنه هو الذي يعجن الأم والأب وحتى المجتمع. وإن كل عجين لم يدخل يده يعد بلا طعم.

الاقتباسات التي تعكس أفكار كولن الموجهة إلى ضرورة أن يكون المعلمون تربويين من أجل نجاحهم في تربية القيم:

المعلم هو إنسان الحب الذي يضيء أمام أبنائه بشعلة الحب التي في يده و يعدهم للغد المشرق.

المعلم هو بطل المحبة والتسامح الذي يعرف طلابه بجميع ملامحهم، ويحتضنهم دائما بمودة ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم ويصفق لنجاحهم، ويغض الطرف عن جوانبهم السلبية.

المعلم هو مرب مثالي يكمل قوله وفعله بعضهما البعض، ويظهر بحياته تماما الأشياء التي يتمنى وجودها لدى طلابه.

وكانت هناك تقييمات على المستوى النظري في موضوع مفهوم كولن للتربية الشمولية الموجهة إلى تنشئة الجيل الذهبي صاحب القلب والعقل وكيفية انعكاس هذا المفهوم على المدارس. سوف تقوم الدراسات التجريبية الشاملة التي ستتم في المدارس الموجودة في تركيا والعالم بتقديم معطيات علمية أكثر في موضوع مدى تأثير فهم كولن التعليمي والإنساني على المعلمين والطلاب الموجودين في المدارس.